الاطفال

عشراء الوحوش [1]

قرأت نبأ ذلك الغزال الآدمي فعادت بي الذاكرة إلى أكثر من نصف قرن حين كنت طالباً صغيراً بمدرسة الأمريكان بحي الأزبكية بالقاهرة حيث منحت وقتئذٍ جائزة هي كتاب (قلادة النحر في غرائب البر والبحر) وذلك لفوزي على الأقران في الدراسة في ذلك الزمان.

وما أذكره حتى الآن وقد فقدت هذا السفر النفيس وأسفاه منذ جيل أنه من مطبوعات بيروت. وما برحت أذكر كذلك البحث الذي تضمنه بشأن عشراء الوحوش في القرن الماضي. ودار الزمن دورته فوقع نظري ذات يوم على كتاب مدرسي كان يدرسه نجلي الأصغر إذ كان طالباً بمدرسة حكومية — بالقسم الثانوي، وأعني به (الجزء الأول من كتاب المطالعة للمدارس الثانوية، المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٣٠ فتصفحته فعثرت فيه على النبذة التالية في الموضوع نفسه: —

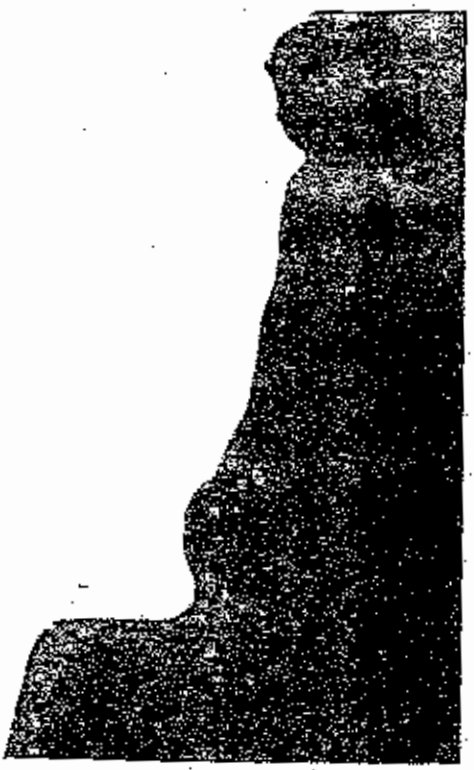

صورة الغزال الآدمي

على أن لبعض الذئاب ببلاد الهند فضيلة لا يحسن أن نسكت عنها، فقد ثبت أن بعض صيادي الهند عثروا في أثناء صيدهم على ذئاب تقبلها أطفال من بني الانسان كما يتبع الأليف أليفه، والولد أمه وأباه، ولكنهم يعثرون على أربع ويطحنون معهم الى الكهوف والمغارات وإذا حزبهم الأمر وأحاط

(١) بمناسبة ما رواته الصحف بشأن الغزال الآدمي، رأيت أن أشرح هذا الموضوع فيما يلي: —

بهم الصائدون عوى كما تعوى الذئاب ، ينفرون من الإنسان متى وجدوه ، ويستأنسون الذئب إذا صحبوه . وفي ذلك المعنى قال الشاعر : —

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

فقد هؤلاء الاطفال أهلهم بنكبة من نكبات الهند فحنّت عليهم الذئاب وعطفت عليهم عطفها على أجرائها حتى صاروا لا يعرفون سواها ، واعتادوا المعيشة معها وفقدوا كثيراً من ميزات الإنسانية والمدنية . تمّ محروفه .

وإليك ما جاء في المراجع الانكليزية : —

إن أحدث الحوادث التي من هذا القبيل حكاية الولدين الهنديين المتوحشين وهما آمالا وكامالا اللذان وجدهما الروّاد سنة ١٩٢١ عائشين مع الذئاب في كهف من كهوف تلك البلاد ثم قصة « لوكاس » وهو صبي من أهالي جنوب أفريقية ، ربّته القرود وعاش معها حتى أتيح إنقاذه من وسطها ، ذلك أنه وجد حوالي سنة ١٩٠٣ وهو يناهز الرابعة عشرة من عمره ، فصارت حادثته أولى الحوادث الحقيقية للاطفال الذين تبنتهم الحيوانات الثديية وربتهم .

ومما ينبغي ذكره في هذا العدد أن صحف جنوب أفريقية وأوروبا وأمريكا ، ظلت أكثر من عشر سنوات تروي لقرائها من حين الى آخر . روايات رائعة على ذلك الغلام العجيب . وكان أول حديث بشأنه ، الخبر الذي أرسل من مدينة يوهانسبرج إلى أمريكا ، عن طريق شركة التيمز النيويوركية ، فأذاعته على قرائها في عددها الذي صدر يوم الاحد ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧ . وإليك ما جاء فيه برمته : —

« كان جنديان من الفرسان القدماء في بوليس مدينة الكاب ، يرتادان أحد مجاهل الأصقاع النائية في الجنوب الشرقي من مدينة الكاب ، فصادفتهما شرذمة من القرود ، يلعب بعضها مع بعض ، في حوض كانت أرضه قد مهدت وأعدّت للزراعة ، وكانت القرود تعيث فيها فساداً كأنها أطفال تلهو وتمرح ، فلم يرق عيشها أحد ذينك الفارسين . فما لبث أن طاردها وأطلق عليها عياراً ناريّاً من عدّارته . فولت الأدبار على الفور ، بيد أن مطارديها لحقا قرداً منها ، وقد تخلف عن قافلته من فرط إعيائه ، على حين كان زملاؤه يجدون في الهرب تخيل الفارسين أول وهلة أن ذلك القرد قد أصابه الطلق الناري فجرح فسارعا إليه ليقبضا عليه ، فدهشا دهشاً عظيماً إذ تبينا أنه صبي وطفل لا قرد وحتى لا ينقصه شيء إلا موهبة الكلام كما يفهمها بنو البشر ، إذ كان يُهشّهم [1] كالنساس ، كلما دنا منه الفارسان ليأسراه ،

(١) الهشة ترديد الصوت في الصدر

ثم يقفز حولها على الاربع ، حتى تظفر عليه . وما إن وقع في أسرها ، حتى ستيط في أيديهما ، إذ لم يدركا ما ينبغي عمله نحوه .

فعمدا إلى الكفور القريبة منهما قصد الاستعلام عن أهله فأخفقا إذ عرضاه على أبناء وطنه جميعاً فلم يعرفه أحد منهم ، ومن ثمة بقلاه . لى معهد من معاهد الأمراض العقلية حيث أقام زهاء سنة ، لم تبدر منه في خلالها أية بادرة تعن على ميله إلى الرذيلة ، مع إنه كان عربيداً منعوفاً بالمراوغة ، وهما من الصفات التي اكتسبها من معاشرته للقرود . ولم يكن في وسعه أن يتبس ببنت شفة . وكان يقدم له ألذ أغذية المستشفى فلم يستطيبها ، بل كان يؤثر عليها القرة الخضراء والتين الشوكي ، فيتناول منهما ثلاث وجبات يومياً . وما برح حتى كتابة هذه السطور في أواخر سنة ١٩٢٧ ملازماً عادته القديمة في غذائه ولا سيما شراهته في أكل التين الشوكي ، فقد شوهد في جلسة واحدة يلتهم ٨٩ تينة منه .

ومع حقيقة أنه كان يبدو عليه شدة الميل إلى السير على الاربع ، بدلاً من الوقوف على ساقيه والاعتماد عليهما وحدهما في المشي ، فقد استدل المشرفون على ادارة المستشفى العقلي ، إنه لا يصلح للاقامة فيه ، لأن كل ما كان يفتقر إليه هو التدريب فحسب . وحينئذ صمم أحد أرباب الاطيان ، من أخيه الموظف بذلك المستشفى قصة الغلام العجيب . فعرض على ولاة الأمور ، أن يتسلمه ويجعله في كنفه ، فلبوا طلبه وسلموه إياه . وكان جسم لوكاس حينئذ مشوهاً بآثار جروح يخيل لناظرها أنها نتيجة عضات أليمة ، لم يعرف لها سبب . غير أنه لما تعلم الكلام فيما بعد ، أخبر سيده صاحب الضيعة أن الندبة [1] الكبرى الباقية في قفا رأسه كانت نتيجة رفسة لعامة .

وظلت نزعاته القردية مبعثاً لاستياء المحيطين به ردحاً من الدهر ، وكان أحب شيء اليه مناوأة القطاط التي تعيش في الضيعة . بيد أنه كان من بدء أمره يلزم الأدب والطاعة مع الناس ، والحب للاطفال ، فأصبحوا يعولون عليه كخاضن لهم . وناهيك به حاضناً

أما في الآونة الحالية فقد أصبح لوكاس بلا شك أنعم خادم في المزرعة المشار اليها ، ولا غرو فهو لا يكترث لوقت ، ولا يعوقه الفجر أو المساء عن الاضطلاع بأعباء أعماله . ولذلك يعهد اليه دائماً في أداء أي عمل في أي وقت ، فيلبي الأمر ، ويثابر على المطلوب منه القيام به مثابرة خليقة بالاعجاب ، جديرة بالثقة المعهودة فيه ، فيفوق أي عامل من العمال

(١) الندبة ـ أثر الجرح الباقي على الجلد والجمع ندب وآداب وندوب

الوطنيين الذين في دائرة اقليمه . وأضحى في وسعه التكلم باللغة الانكليزية كلاماً جيداً إلى حدٍّ ما . ولكنه لا يفهم شيئاً من لغات بني جلدته ، مع أن أعماله تجعله مرتبطاً ببني وطنه ارتباطاً دائماً . وفي هذا الصدد كتب المستر مكيس المحرر بجريدة ستار ، التي تصدر في مدينة يوهانسبرج التقرير الآتي نصه بشأن هذا الصبي الغريب ، ثم نعت ما كتبه الى الدكتور دارث عميد جامعة Witwatersrand (وصحة نطق هذا الاسم هي فيتفاترزرانت ، في جنوب أفريقية . واليك خلاصة ما يلي : —

إن القصة التي قصها علي المستر جورج ه . سميث ، صاحب مزرعة (تورنهيل) ، وهي مقر لوكاس منذ ٢٨ سنة كانت آخرها سنة ١٩٣١ مطابقة كل المطابقة لما رويته عليه الصحف الأمريكية .

وتحرير الخبر أنه في سنة ١٩٣١ صار لوكاس يناهز الاربعين من عمره وأن سيده يعترف بحسن سلوكه ، وجده في عمله وأنه خير معوان له . وهذا الى جانب طاعته التامة ، وذكائه المفرط ، مع العلم بأن ذلك الذكاء لم يظهر عليه إلا من بلوغه الثانية عشرة من العمر ، ثم سرد المستر سميث تاريخ حياة لوكاس فقال : —

قضى لوكاس طفولته بين القرود ، وهذا امر نحن على يقين منه ، ليس بالأدلة التي تحويها هذه القصة وحدها ، بل بالمشاهدات التي شاهدتها بنفسي فيه ، والتي عرفها غيري في خلال الحقبة المديدة التي قضاها لوكاس في ضيعتي . ودليلنا على صدق أقوالنا ، الصورة الجانبية لوجهه ومراوغته ، وطول ذراعيه ، ونمو ردفيه نمواً شاذاً ، وتنكيس رأسه ، واهتزازه دائماً ، والخدوش التي في أعضاء جسمه وصابته ، ثم الذعر الغريب الذي يعتريه ، وتكشيره عن أنيابه ، وهذه صفات كلها براهين دامغة تثبت يقيناً أنه كان في حداثته معاشراً للقرود . ثم أن وجهه لا يشبه في القرود لأنه ولد ميلاداً طبيعياً لا غبار عليه . وإنما عاداته التي اقتبسها من معاشرته للقرود هي التي جعلته يختلف اختلافاً بيناً عن بني جنسه . وتكلم المستر سميث في مسألة أصل لوكاس ، فنقل القصة التالية الخاصة به موقناً بصدقها فذكر مضمونها وهو أن لوكاس حينما كان طفلاً صغيراً تركته أمه نائماً ذات يوم وقصدت الى أحد الحقول لتعزق أرض الذرة . ولما أتمت عملها هناك ، عادت إلى كوخها فلم تجد طفلها ، فاعتقدت حينئذٍ أن القرود قد سرقته ! وشرح المستر سميث كيف تمكن من ترويض لوكاس قائلاً : —

لقد قضيت أشهراً دون استطاعتي إصلاح حاله ، إذ كان همجياً ميالاً للأذى فوجدت

تضمي مضطرًا إلى ضربه بالسوط ولا سيما عند تحذيره من العادات الحيوانية القذرة ومنعه من ارتكابه إياها في الدار وحولها . وكانت حاتيك العادات تشبهها في القطة ، ومنها بغضه للماء وإحجامه عن الاغتسال به ، وما كان في وسعي التفاهم معه لانه لم يكن يعرف أية لغة بشرية مهما تألقت بضع كلمات إنكليزية فلم تلبث ذاكرته وذكاؤه أن تنبها فطرأ عليهما انقلاب عظيم . وبلغ من حسن استعداده لتعلم أن أحد بعد مضي سنوات ، يسرد لي كيف كان يدترك مع القرود وهو عشيرها ، في سرقة بيض النعام من أداحيه [1] فرفسته إحدى هذه منها فجرحته جرحاً دامياً في رأسه وهو الجرح الذي ما زال أثره باقياً فيه الى اليوم .

* * *

ولم يكن ذلك الفتى يعرف أي لسان من لغات بلاده ، وانما كانت معلوماته جميعها محصورة فيما تلقاه عني من الكلمات الانكليزية القليلة طيلة إقامته في كنفي » .

أما لوكاس فقد بسط تاريخ حياته كما هو مثبت في السطور الآتية : —

« أصرّح أنا لوكاس الصبي القردي المستخدم لدى المسترج . فحيث صاحب ضيعة ثورنهيل بدائرة باذورست (بمركز الكاب) بأني غدوت أستطيع ذكر بعض حوادث مما وقعت لي طوال معاشرتي للقرود ، حيث كان غذائي يؤلف غالباً من الصراصير وبيض النعام ، والتين الشوكي والذرة الخضراء وعسل النحل البري . وقد رقصتني في رأسي لعامة بينما كنت أهجم على أدحيها وكثيراً ما لسعني النحل عند ما كنت أسطو على خلاياه . وقد تسلقت مرة صخرة شاهقة وغرة منتبهاً عن اي شيء أتلذى به ، فزلت ساقي اليسرى فهويت الى الحضيض ، فكسرت تلك الساق . ولبثت طيلة معاشرتي للقرود أسير على الأربع وأنام في الأدغال عاري الجسم كل الفري . وكنت ذات يوم أبحث عن القوت مع زملائي القرود فأطلق علينا فارسان ، عيارات نارية من مسدساتهم ، فحاولت الهرب بكل ما في طاقتي ، فشلت ، فقبضا عليّ ، ثم حملني أحدهما على جواده . ويؤسفني الآن أني أجهل المكان أو المركز الذي وجدني فيه ذلك الفارس » . ☒ التوقيع هكذا وهو يقوم مقام لوكاس .

عرض جثري

---

(١) الادحي — ضم الهمزة وسكون الدال — الموضع الذي تبيض فيه النعام وهو فعل وزن أفعول من دحوت لانها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه وليس فعالة مثل .